الفصل الثاني

تحليل المعلقات

١

معلقة امرىء القيس :

أ ـ ترجمته :

هو حُنْدُج بنُ حُجْر بنِ الحارث بنِ عَمْرو بنِ حُجر بن عمرو من كِنْدَة ، وكندةُ قبيلة يَمنيَّة ، وقد يُسمَّى عَدِيّاً ومُلَيْكة .

ويُكنَى بأبي الحارث وأبي وَهْب وأبي زَيْد .

ويُلقَّب بامرىء القيس ، ومعناه رَجُلُ الشِّدَّة ، وبالملك الضِّلِّيل لأنه عاش بعيداً عن أبيه وأهله يرتادُ مع صَحْبه الغُدُر والرياض ، ويلهو بالصيد ، وشربِ الخمر ، وسماعِ الغناء ، كما يُلقَّب بذي القُروح لقوله : « وبُدِّلتُ قُرْحاً دامياً بعد صحةٍ » وبالذائد لقوله : « أذود القوافيَ عني ذِيادا » .

وأمّه فاطمةُ بنتُ ربيعة ، أختُ كُلَيْب ومُهَلْهِل التغلبيِّيْن .

رفع
المسهم
عبد الله البرقاوي

وكانت كندة تنزل في الجاهلية غربيّ حضرموت، وكانت متصلة بالحميريين.

وكان حجر بن عمرو، سيدُ كندة، والجدُّ الثالث للشاعر، في حاشية حسّان بن تُبّع مَلِكِ حِمْيَرَ، وقد فتح حسان فتوحاً كثيرة في جزيرة العرب، فولّى حجراً بعض قبائلها، فدانت كلها له، كما دان حجر بالولاء لحمير.

ونزل حجر نجدا، وكان اللخميّون، ملوكُ الحيرة، قــد بسطوا نفوذَهم على تلك البلاد وخاصّةً بلادَ بَكْرِ بنِ وائل، فحارب حجر اللخميين، وأزال نفوذَهم.

واتسع سلطان كِنْدَةَ في عهد الحارث بن عمرو، إذ اتصل بقباذ مَلِكِ الفرس، فولاه الحِيرةَ مكان اللخميين، فنشر نفوذه وسلطَ الجزيرة على القبائل، وفرّق المُلْكَ في أولاده؛ فولّى حجراً، أبا امرىء القيس، بَني أسد.

ولكنّ سلطة كِندةَ لم تدم طويلاً، فقد استعاد اللخميون نفوذَهم في الحيرة بعدَ موت قباذ، وتقرّبوا من كِسْرى أنو شروان، وأخذوا يدسّون لأولاد الحارث بن عمرو، فقُتِل بعضُهم، وتنكَّر بنو أسد لحجر، ونبذوا طاعته، وأمسكوا عن دفع الاتاوة له، فاستعان بجند من ربيعة، وأعمل في رقابهم السيف، واستباح أموالهم، وحبس أشرافهم، ومنهم عَبيدُ بنُ الأبرص الشاعر، ثم رقّ لهم، وأطلق سراحهم، فحقدوا عليه، وتربّصوا به حتى قتلوه.

رفع
المسهم

وهكذا قُتِل حُجر ، وامرؤ القيس غائب ، فوقع عليه عِبْءُ الأخذ بثأر أبيه ، واستِردادِ مُلكِه .

ولا نعرف سَنَةَ مَوْلِدِه ، وأغلب الظنّ أنه وُلِدَ في أوائل القرن السادس للميلاد ، ونشأ نشأةً يَحوطُها الغموض ، ويختلف فيها الرواة ؛ فبعضُهم يقول إنه نشأ ميّالاً إلى اللهو ، يَشرب الخمر ، ويَتَغزّل بالنساء ، ويقول الشعر في ذلك ، فَغضِب عليه أبوه وطرده ، فكان يطوف في أحياء العرب ، ومعه فتيانٌ شُذّاذ من طيىء وكلبٍ وبَكرِ بنِ وائل ، فاذا صادفوا غديراً أو روضةً أو مَوضعَ صيد نزلوا فأقاموا ، وخرج هو للصيد ، فصاد ، ثم عاد فأطعمهم ، ومضوا يشربون الخمر ، وتُغنّيهم القيان ، ولا يزالون على ذلك حتى يَنْفَد ماء الغدير ، فينتقلون عنه الى غيره .

وظل كذلك حتى أتاه نَعْيُ أبيه ، وهو بدَمّون من أرض اليمن ، فقال :

تطاول الليلُ علينا دَمّونْ دَمّونْ إنّا مَعْشرٌ يَمانون
وإنّنا لأهلنا مُحِبّون

ثم قال : « ضَيّعني صغيرا ، وحمّلني دمَه كبيرا ، لا صَحْوَ اليوم ، ولا سُكْرَ غدا ، اليومَ خَمْرٌ وغداً أمْر » . ثم شرب سبعاً فلما صحا آلى ألاّ يأكلَ لحماً ، ولا يشربَ خمراً ، ولا يَدّهنَ بِدُهْن ، ولا يُصيبَ امرأة حتى يُدرِك بثأره .

وهذا الخبرُ في جملته يُخالف ما رُوِي من أن امرأ القيس كان مع أبيه في حربه لبني أسد ، وأنه فرّ حين هُزِمَت كندة ، وقُتِل أبوه .

وذكر ابن قتيبة أنّ أباه طرده بعد ما قال في فاطمةَ ابنةِ عمه ، وكان لها عاشقاً ، فطلبها زماناً ، فلم يَصِل إليها ، وكان يطلب منها غِرَّة حتى كان منها يومَ الغدير بدارةِ جُلْجُل ما كان ، فقال قصيدته : « قِفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ » فلما بلغ ذلك أباه دعا مولىً له ، وطلب منه أن يقتُلَه ، فذبح جُؤْذراً ، فأتى حُجراً بعينه ، وَندِم حُجر على ذلك فأنبأه المولى أنه لم يقتل ابنه ، ثم قال قصيدته : « ألا انْعَمْ صباحاً أيُّها الطللُ البالي » فبلغ ذلك أباه فطرده .

وهذه الأخبارُ والأشعارُ ظاهرةُ الوضع والانتحال ، وكأنّ جمهور الرواة استلهموا ما تَدُلُّ عليه أشعارُه من ولوع بالشراب والصيد ومغازلة النساء ، فلفّقوا الأخبار الدالةَ على هذا ، وضمّنوها بعضَ الأشعار .

وقد مثّلتْ معلقتُه هذا الطورَ اللاهيَ من حياته ، فلما قُتِل أبوه انتقل إلى طور آخر ، إذ كان عليه أن يأخذ بثأر أبيه من بني أسد ، ويَسترِدَّ مُلْكَ كِندةَ عليهم ، ويَظهرُ أن هؤلاءِ خافوا سُوءَ العاقبة ، فأرسلوا إليه وفداً عَرَض عليه القصاص أو الفداءَ أو النَّظِرة حتى تَضعَ الحوامل ، فاختار الثالثة .

ونقرأ أخباراً كثيرة عن طلبه لبني أسد ، فقد رحل يستنصِرُ القبائل للأخذ بثأر أبيه ، فاستنجد بقبيلتيْ بكْرٍ وتَغْلب ، وعَلِم بنو أسد بما يُدبِّر لهم فارتحلوا إلى بني كِنانة ، وأقبل امرؤ القيس حتى انتهى إلى هؤلاء ، وهو يَحْسَبهم بني أسد ، فوضع السلاح فيهم ، فأعلموه أنهم ليسوا طَلِبَتَه ، وكان بنو أسد قد عرفوا قُدُومَه ، فرحلوا ، فتبعهم حتى

أدركهم وقاتلهم ، وَحجَز الليلُ بينهم ، فلما أصبحت بكرُ وتغلبُ أبوا أن يَتبعوهم ، وقالوا له : أصبتَ ثأرك ، وانصرفوا عنه ، فذهب إلى اليمن فأمدَّه مَرثَد الخَيْر الحِمْيَري بخمسمائة رجل ، وتبعه شُذَّاذ العرب ، واستأجر من القبائل رجالاً ، فسار بهم إلى بني أسد ، ولكن مَلِكَ الحيرة المنذرَ بنَ ماءِ السماء أخذ يُؤلِّب عليه القبائل ، ويَدُس له الدسائس ، فاضطُر أن يَتنقَّل بينَ أمراء العرب حتى نزل أخيراً على السَّمَوْءَل ، وسأله أن يكتب إلى الحارث بنِ جَبَلة الغسَّاني لِيُمَهِّد له السفرَ إلى القسطنطينية ، ويُوصلَه إلى قيصر الرومان لِيُعينَه في طلب مُلك كِنْدة ، فأجابه السموءل ، فأودعه امرؤ القيس امرأتَه ومالَه ودروعاً كان يَتوارثُها ملوكُ كندة ، ورحل إلى (جستنيان) ملكِ الروم ، ورُوِي أنّ هذا أحسن استقبالَه لأنه كان طريدَ اللخميين ، وهؤلاء يعيشون في ظل الفرس أعداءِ الروم ، ولعله أراد أن يَمُدَّه بجيش ينتقم به من أمراء الحيرة ، ويَصطنعه كما اصطنع الغساسنة .

وذكر بعض مؤرخي الروم خبرَ رِحلته إلى القسطنطينية ، وسموه قيساً لا امرأ القيس ، وأن القيصر وعده بإعادة ملكه ، وولاّه فلسطين ، ولكن هذا لم يُرضه ، فقفل راجعاً .

وروى بعض المؤرخين من العرب أن القيصر قَبِل وِفادته ، وأمدَّه بجيش فيه جماعة من أبناء الملوك ، وأن بعضَ أصحابه قالوا له : « إن العرب قومُ غَدْر ، ولا تأمنْ أن يظفرَ بما يريد ثم يَغزوكَ بمن بعثتَ معه » ، وروى آخرون أن بعض العرب ممن كانوا مع امرىء القيس اتهموه عند القيصر بأنه كان يُراسل ابنته ، ويُواصلها ، ويُشبِّب بها ،

رفع
المسيَّر هيمن

فأرسل اليه حُلّة مسمومة ، فلما لَبِسها أسرع فيه السُّمُّ ، وسقط جلده ، فَلُقِّب بذي القروح ، ويبدو أنه أصيبَ في أثناء عودته بمرض جلدي سبّب له قروحاً ، فنسج الرواة حولَ مرضه تلك القصة .

وأخبار امرىء القيس بعد مقتل أبيه رواها ابن الكلبي المتهم في روايته .

والظاهر أن حياة الشاعر لَعِب بها خيال الرواة حتى أذهب معالمها ، وهذا جعل الدكتور طه حسين يشكُّ فيها ، ويذهبُ إلى أنها تمثيلٌ لحياة عبد الرحمن بنِ الأشعث الكِنْديّ الذي ثار على الحجّاج في العراق ، واستعان بملك الترك ، ولكنه أخفق في مسعاه .

ب ـ معلقته :

يستهلّ الشاعر قصيدته بالوقوف على الديار وبكاءِ الحبيب ، ويسمي الأماكن التي نزلت بها صواحبه ، ويصورها باقيةً تغالب الفناء ، وتضطرب بالحياة ، ويصف حزنه يوم الفراق ، ويذكر تهدئة صحبه له ، ويُبيّن أن ما يَشفيه هو البكاء ، لا الوقوفُ بالرسم الدارس .

والشاعر هاجته ذكرى الحبيب فبكى ، كما هاجته فكرة الفناء الماثلةُ في الرسوم فنالها ، وصوَّر الدارَ عامرةً بالظباء ، فهو بين حزن على فراق الحبيب ، وبين فناء رمزت اليه الأطلال .

وهو يُسهب في التعبير عن حزنه حتى يجعلَ البكاءَ غايتَه وحاجة نفسه ، فيقف على الدار ليبكي ، ويَهلِك أسىً ، ويجد في البكاء شفاء ، ولهذا الاحساس خطرُه ، فهو يصور حنين الشاعر مقصوداً لذاته ، واذا طلب اليه الصحب أن يتصبّر ، فهم يطلبون منه شيئاً لا يُعزّيه .

رفع المسهم

وهو يمتاز برقة القلب ، ونحس هذه الرقة أكثر مما يصورها اللفظ ، وهو يؤدي معانيه في سهولة ويسر ، إذ يرسل نفسه على سجيتها ، ويعبر عن عاطفته تعبيرا مباشرا .

ويستمد صوره من الواقع الحسي ، فيستعير النسج لاختلاف الرياح وتعاقبها على الرسم ، ويشبه بعر الآرام بحب الفلفل ، ونفسه بناقف الحنظل ، وهي صور مادية حسية .

ويخاطب صاحبيه في مطلع القصيدة ويوجز ، ومخاطبة الاثنين صيغة شعرية ابتدعت في العصر الجاهلي ، واشتهرت في بقية العصور الأدبية ، والقدماء يعدون المطلع خير مطلع نظمه شاعر ، فقد وقف ، واستوقف ، وبكى ، واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد في قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ويتخذ وقوفه بالديار ووصفه لآثارها وسيلة للتعبير عن عاطفة البين والشوق ، فيقول :

وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

ولم يكن أول من وقف بالديار وبكى ، وإنما سبقه الى هـذا شاعر ذكره في قوله :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حذام

والوقوف بالأطلال فن مقتطع من الحياة العربية التي تقوم على الرحلة والانتقال ، فالعربي ينزل بقعة من الأرض طلباً للماء والمرعى ، فاذا أجدبت ارتحل عنها قاصداً مكاناً آخر ، وقد تنزل القبيلتان مكاناً

رفع المسيهما

واحدا ، فيختلط رجالها ونساؤها ، ثم يكون الرحيل ، فيخلّف في نفس الشاعر حزناً يعبّر عنه بالوقوف على الديار وبكاء الأحباب ، وهـذا هو الأساس الذي يقوم عليه وصف الطلل ، فهو بكاء وتعبير عن عاطفة البين والشوق إثرَ الفراق .

ولا شك في أن امرأ القيس مهّد للشعراء سبيل هذا الفنِ الذي كان طبيعيّاً مقتطعا من الحياة في العصر الجاهـــلي ، ثم أصبح تقليديّاً متكلّفاً في سائر عصور الأدب .

★ ★ ★

وبعد أن يفرُغ الشاعر من الوقوف بمنازل الأحباب ووصفِ آثارها يتغنى بأيام لهوه ، ويَصِلُها بما هو فيه ، فحزنُه على التي فارقت الديار كحزنه على أم الحُوَيْرِث وأم الرَّباب ، ويصف صاحبتيْه هاتين وصفـا بسيطا مُقتَضَبا فيها اذا قامتا تَضوَّع منها المِسْك ، ولعله أطال وصفها ، ثم سقط أكثره ، فلم يبق منه إلا بيتان .

ويشبه الشاعر رائحةَ المسك المنتشرةَ من صاحبتيه برائحة القرنفل التي حملتْها الصَّبا ، وهي صورة مترفة .

ويأخذه الحزن ، فيبكي حتى يبلَّ دمعه مِحْمل سيفه ، ثم يتغـنى بأيام لهوه ، ويخص منها ثلاثة : هي يومُ دارة جُلْجُل ، ويوم عَقْرِ مطيته العذارى ، ويوم دخولهِ خِدْر عُنَيْزَة .

واليوم الاول لا يذكر منه شاعرنا شيئا ، ولا نعرف عنه غـيرَ ما رواه الفرزدق في حديثه مع النِّسوة في ظاهر البصرة ، ولعل حديثه

رفع المسهم

مُلتَفِق عليه ، ويفضل هذا اليومَ على بقية الأيام ، فيقول :

ألا رُبَّ يومٍ لكَ منهنَّ صالحٍ ... ولا سيَّما يومٍ بدارة جُلجُلِ

واليوم الثاني عقر فيه ناقته ، وتهادت العذارى لحمها وشحمها الشبيه بهدّاب الدِّمقس ، وقد عجب لما فعل من نَحْر ناقته وحَمْلِ رحلها على المطايا ، وصور الفعل (يرتمين) نشاط العذارى واغتباطهن بوليمة الشاعر :

ويومَ عقرْتُ للعذارى مَطيَّتي ... فيا عَجَبًا مَنْ رَحْلِها المُتَحَمَّلِ
فظلَّ العذارى يَرتمين بلحمها ... وشحمٍ كهُدّاب الدِّمقس المُفتَّلِ

واليوم الثالث فصّله قليلا ، وصوره تصويرا حيا ، فقد أرانا دخوله خدرَ عنيزة ، وكيف مال الغبيط بها ، وأسمعنا لومَها له ، ودعاءَها عليه ، وسؤاله لها أن تسير وتُرخيَ زمام البعير ، فسواءٌ عليه أعُقِر أم سَلِم .

ويومَ دَخلتُ الخِدرَ خِدرَ عُنَيْزةٍ ... فقالتْ : لكَ الويلاتُ إنَّك مُرْجِلي
تقولُ ، وقد مال الغبيطُ بنا معاً ، ... عَقَرْتَ بعيري يا امرأ القيس فانزِلِ
فقلتُ لها : سيري وأرْخي زمامَهُ ... ولا تُبْعِديني مِنْ جَناكِ المُعلَّلِ

وقد استثمار الجَنَى لما نَعِم به من لَمْس وقُبَل ، وبعث الحياة والحركة في الأبيات بما أجرى من حِوار بينه وبين عنيزة ، وبما نوَّع من جمل .

تلك أيامُ الشاعر ، وقد يكون لكل يوم قصةٌ رواها في معلقته ، ثم سقطت كلها أو بعضها ، وجاء الرواة فجمعوا أطرافها ، وجعلوها قصة واحدة مع أن الشاعر لم يذكر أنه أتى ذلك في يوم واحد .

رفع المسهم

وخلاصة القصة أنّ الفرزدق خرج مُتنزّهاً في ظاهر البصرة حتى انتهى إلى غدير ، فرأي نسوةً مستنقعاتٍ في الماء ، فقال : لم أر كاليوم قطّ ، ولا يوم دارة جلجل ، وانصرف مستحييا ، فنادينْه ، وسألنه أن يُخبِرَهنَّ خبر ذلك اليوم ، فقص عليهن أن أمرأ القيس كان عاشقا لابنة عمه عنيزة ، وأنه طلبها زمانا ، فلم يَصِل اليها حتى كان يومُ الغدير ، وذلك أن الحيّ احتملوا ، فتقدّم الرجالُ ، وتخلّفت النساءُ والخَدَم ، فلما رأى ذلك امرؤ القيس تخلف ، فكَمَن في غيابة من الأرض حتى مرت به النساء ، وفيهن عنيزةُ ، فلما وردْن الغدير تجرَّدْن ، ونزلن فيه ، فأتاهن ، وهن غوافل ، فأخذ ثيابهن ، وقعد عليها ، وقال : لا أعطي الواحدةَ منكن ثيابَها حتى تخرج مُتجرِّدة ، فأبَيْن ذلك عليـــه ، ثم خشِين أن يُقصرن عن المنزل الذي يُرِدْن ، فخرجن إلا عنيزةَ ، فناشدْنه أن يُعطيها ثوبَها ، فأبى ، فخرجت ، فنظر اليها مقبلةً مدبرة ، ثم أقبلن عليه جائعاتٍ ، فنحر لهن ناقته ، ثم كان الرحيل ، فحملن متاعه وزاده على رواحلهن ، وحملتـه عنيزة على بعيرها ، وكان يجنح إليها ، فيدخل رأسه في خِدرها ، ويقبلها ، فاذا امتنعت مال حِدْجها ، فتقول له : « عقرت بعيري فانزل » .

★ ★ ★

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف تهتّكه في غزله ، فهو يطرُق الحبلى والمرضع ، فَيُذهِل هذه عن رضيعها ، ويلهو بها ، فاذا بكى طفلها من خلفها انصرفت له ، فكان بعضُها معه ، وبعضُها مع صاحبها .

فَمِثْلِكِ حُبْلى قد طَرقتُ وَمُرْضِعٍ فألهيْتُها عن ذي تمائمَ مُحْوِلِ
إذا ما بكى مِنْ خلْفها انصرفتْ لهُ بِشِقٍّ وتحتي شِقُّها لم يُحوَّلِ

رفع المسهم

وقد فتح الشاعر بهذا الغزل الماجن باب الأدب الصريح المكشوف ، وتابعه فيه طرفة بن العبد والأعشى في العصر الجاهلي ، وعمر بن أبي ربيعة في الاسلام ، وبشار وأبو نواس في العصر العباسي .

فبشّار كان ماجنا لا يبالي ما يقول ولا ما يفعل ، وقد صور غرائز الرجل والمرأة وميولهما في شعره ، فقال :

عَجِبتْ فطمَةُ من نعتي لها | هل يجيد النعتَ مكفوفُ البَصَرْ
دُرّةٌ بحريةٌ مكنونةٌ | ما زَهَا التاجر من بين الدُّرَرْ
أذْرَتِ الدمع وقالت : وَيْلَتي | من وَلُوعِ الكفِّ ركّاب الخَطَرْ
أمّتي بدَّد هذا لُعَبي | وَوِشاحي حلَّه حتى انتَثَرْ
فدَعِيني معه يا أمّتا | علّنا في خلوةٍ نقضي الوطَرْ
أقبلتْ في خلوةٍ تضرِبُها | واعتراها كجُنُونٍ مُستَعِرْ
بأبي والله ما أحسنَهُ | دمعَ عينٍ غسل الكُحْلَ قَطَرْ
أيّها النُّوامُ هُبّوا ويحَكُمْ | وسلوني اليومَ ما طعمُ السَّهَرْ

وأبو نواس كان مستهترا بالشراب واللذات ، وقرض الشعر في أبواب المجون ، فأضاف الى التغزل بالمرأة التغزلَ بالمذكر .

وقد كان لتيار الأدب الصريح المكشوف في الشعر العربي القديم أثر في الشعر العربي الحديث .

★ ★ ★

ثم يصف تأبّي صاحبته عليه فوق ظهر الكثيب في أحد الأيام ، وينتقل الى عتابها ، فيسألها ألاّ تُمعِنَ في دلالها ، وأن تتلطف إن

قصدتْ فِراقه ، وأن تقطع أمره من أمرها إن وجدت في خُلُقه ما لا ترضاه ، ويمضي في هذا العتاب ، فيصور غرورَها بحبه لها ، وامتلاكَها لقلبه كله :

وإنْ تكُ قد ساءتكِ منّي خَليقةٌ ... فَسُلّي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ
أغرّكِ مني أن حُبّكِ قاتــلي ... وأنك مهما تأمُري القلبَ يَفعَلِ
وما ذَرَفَتْ عَيْناكِ إلا لِتَضْربي ... بِسَهْمَيْكِ في أعشارِ قلبٍ مُقَتَّلِ

وقد عاب النقاد على الشاعر وصفَ صاحبته بأنها مغرورة بحبه لها ، وقالوا اذا لم يَغُرّها ذلك ، فما الذي يغرّها منه ؟

ومهما يكن فعتابُ الشاعر لصاحبته رقيق ، وهو يشتمل على صور مادية حسية ، فالشاعر يَكني بالثياب عن قلبه وقلبها ، ويستعير السهمين لعينيها ، أو يصورها وقد ضربتْ بسهامها على قلبه ، ففازت به كلّه كما يفوز الرجل بسهميْ المُعلّى والضَّريب ، ويَغلِب على جزور الميسر كلّها .

★ ★ ★

ثم يملكه العُجْبُ بنفسه ، فيدّعي افتتانَ النساء به ، ويروي قصة امرأة جديدة ، ويصور لهوه بها ، فهو يطرُقها حين مالت الثّريّا للمغيب ، ويتجاوز أحراسها الذين يرومون قتله ، ويجيئها وقد ألقتْ ثيابها إلا واحدا ، فترتاع لِمَقْدَمه ، وترميه بالجهالة ، ثم يخرج بها حتى يُجاوزا ساحةَ الحي ، وينتهيا إلى بقعــــة من الأرض ، وهنا يأخذ بجانبيْ رأسها ، ويتمتّع منها ، فتميل عليه بخصرها اللطيف وُخلخلها الريّان .

فالشاعر رامَ خِباءَ صاحبته ، فلما بلغه لم يُقم فيه ، وخرج بها ،

رفع
المسبهم

وانتبذ من أهلها مكاناً قصيّاً ، ونسي أن يقص علينا كيف قضى لهوه ، وماذا فعل ليردّ صاحبته الى خبائها ، وكيف نجا من أحراسها الذين يُضمرون له الشر .

وقصة زيارة الشاعر لصاحبته تذكرنا زيارةَ عُمرَ بنِ أبي ربيعةَ لصاحبته (نُعْم) في إحدى الليالي ، وخلاصتها أنه أراد لقاءها ، فتجشّم السُّرى حتى بلغ منزلها ، وأخذ يراقب الحي ، ويُحاذر من يطوف منهم بالربع ، وينتظرهم حتى يناموا ، ويصف مجلسه وناقته فيما بين ذلك .

ثم يخطو نحوَها ، فيغدو قريبا منها ، ويسأل نفسه عن خبائها ، فيدلّه عليه رائحتها وحبّه لها ، ويلبث مكانه حتى تسكن الأصوات ، وتُطفأ المصابيح ، ويغيبَ القمر ، ويُروّحَ الرعيان ، وينامَ السامرون ، ويأخذُه النوم ، فينفضُه عن عينيه ، ويمشي الى نُعْم مِشْيةَ الحيـة ، وركنُه مائل من شدة الحذر ، فيلقاها ، ويصور ملاقاتَه لها ، ويحاورها في أسلوب قصَصيٍّ رائع .

وتظل نُعْم مضطربة ، فتزجر عُمرَ ، وتتهمه بأنه يفضحها ، وتحار في جرأته ، واستخفافه بقومها ، وتَعجّبِه لزيارتها ، لكنه يعبر عن حبه لها ، وشوقه اليها ، فترق له ، وتسكُنُ اليه ، وتدعو اللهَ أن يحفظه .

ولا ينسى عمر نفسه ، فهو يذكر كنيته ، ويصور منزلته عند نُعْم وسلطانه عليها ، ويصف بعد ذلك قِصَر ليله ، وطيبَ مجلسه ، وفمَ نعم ، وطيبَ رائحته ، وبياضَ أسنانه ، ثم يصوِّر انقضاء الليل ، ويَقظةَ القوم ، وحيرة صاحبته في أمر رحيله ، وما ابتدعت أختاها

رفع المسار

من حيلة لخروجه ، فهو قد رأى أن يتظاهر لأهلها ، فاما أن يتجاوزهم فينجو ، وأما أن يأخذوه فيظفروا به ، والاختان أشارتا بأن يتنكّر في زيّ فتاة ، ويخرج متستّرا بصحبتهن .

ثم يصور الأخوات يوبخنه بعد مجاوزة الحي ، ويأمُنه ، ويشرن عليه أن يحول نظرَه عنهن إلى غيرهن ، اذا جاء زائرا ، ليُضلّل الناسَ ، فلا يعرفوا حبّه لهن .

فقصة امرىء القيس ناقصة ، وقصة عمر محدودة بمكان وزمان ، منسّقة تنسيقا حسنا ، وأشخاصها الشاعر والنسوة الحجاريات ، وموضوعها شئونُ القلب والحب ، ويمكن أن يقال إن الأول كان متقدما مبتدئا ، وكان الثاني متأخرا متحضرا ، قرضَ الشعر بعد أن ارتقى ، فلا غرابةَ أن يكون أبرعَ من سابقه في غزله القصصي .

وعمر يجعل الغزل غرضا مستقلا بذاته ، ويبدأ قصيدته مباشرةً دون مقدمة ، فيتحدث عن نعم وكلفه بها ، ويصور حاله في هواها ، ويقص خبرها في مدفَع أكْنان ، وزيارتَه لها في ذي دَوْرانَ ، فيكون غزله قصصيا ، ويتحدث عن نفسه ، ويصور منزلته عند النساء ، فقصيدته قصة غرام قصيرة ، فيها عذوبة ورقة ، ودقة في الوصف ، وتصوير لما يجده القلب ، والشاعر ينفخ الروح في قصته ، فيُنْطِق الأشخاص ، ويُجري بينهم الحوار بلغة البيئة والعصر ، ويكشف عن ظاهرة الترف في الحجاز في العصر الاسلامي .

والذين ذكروا رائية عمر ، وما دار حولها من أخبار ، نسُوا

أن يذكروا أن امرأ القيس سبقه الى الغزل القصصي ، ولم يقل قائل منهم إنّ عمر تابعه في هذا الفن .

وقصة الزيارة في الليل أعادها امرؤ القيس في قصيدة ثانية له ، لكنه لم يخرج بصاحبته هنا كما خرج بها في المعلقة ، وانما سعى اليها مُتلطّفاً محتالا ، وأمضى معها ليلة فاحشة ، وكان يائسا ، فقد علم أن زوج صاحبته قريبٌ منه ، وأنه يَرصُدُه ، لكنه كان مطمئنا إلى شجاعته وجرأته ، فسيفه ورمحه معه ، فهو قد أجمل خبر الزيارة في القصيدتين ، ولم يُبيّن كيف فارق صاحبتيه في المرتين ، وهنا نتساءل : كيف يصح أن يعرض شاعر جاهلي للغزل القصصي في شعره ، ثم يأتي شاعر اسلامي فيقلّده في هذا الفن ، ويرتقي به ، ولا يُسجّلُ النقاد هذا التقليد .

ونقع في قصة الزيارة على ألفاظ غريبة جافية ثقيلة في النطق ، من مثل العقنقل في قوله :

فلمّا أجزْنا ساحة الحيّ وانتحى بنا بطنُ خبْتٍ ذي قِفافٍ عقنقلِ

وهو قول يشتمل على حروف مكرورة كالحاء في الشطر الأول ، والفاء والقاف في الشطر الثاني .

ونلاحظ عناية الشاعر بالوصف والتصوير ، فهو يشبه المرأة ببيضة النعام لبياضها وصفائها ورقتها ، واجتماعَ الكواكب في الثريا ، ودُنوَّ بعضها من بعض بالوشاح المُفصّل ، فيقول :

وبَيْضةِ خدْرٍ لا يُرامُ خِباؤها تمتّعتُ من لهو بها غيرَ مُعْجَلِ
تجاوَزتُ أحراساً إليها ومَعْشَراً عليَّ حِراصاً لو يُسِرُّون مَقْتَلي
اذا ما الثُّريّا في السماء تَعَرَّضَتْ تَعَرُّضَ أثناءِ الوشاحِ المُفصّلِ

المسهم

وبرع الشاعر في تصوير الحالة الواقعة ، فانـــه لما خرج بالمرأة ، وانتبذ من أهلها مكانا قصيا ، أرانا كيف كانت تعفّي الأثر بأذيال مِرطها ، وكيف أخذ بشعرها ، فتمايلتْ عليه بخصرها اللطيف وساقها الريان :

خرجتُ بها أمشي تَجُرُّ وراءَنا على إثرنا أذيالَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

ويصور عمر بن أبي ربيعة هذا المنظر ، ويزيد عليه تصوير العِقْد البدد في قوله :

فقامت تُعفّي بالرداء مكانَهـا وتطلبُ شذْراً من جُمانٍ مُبدَّدِ

★ ★ ★

ثم يصف أجزاء المرأة وصفا دقيقا مفصلا ، فيشبهها بالمهاة في عينها ، وبالظبي في جيده ، ويشبه شعرها الغزير بعِذْق النخلة المتداخل ، وخصرَها بالزمام ، وساقَها بقصب البردى النابت بين النخيل ، وأصابعَها بأساريع الظبي ومساويكِ شجرِ الاسحِل ، ووجهَها بمنارة الراهب ، ولونَهـا المُصفرّةَ بلون أول بيض النعامة .

ونجد الكناية في وصفه وتصويره ، فانه لما أراد أن يصف المرأة بطيب الرائحة وطراوةِ الجسم والكسلِ والنعمةِ كنّى عن ذلك بأن فَتيتَ المسك فوق فراشها ، وأنها نَؤوم الضحى ، وأنها لا تشدُّ النطاق في وسطها للعمل .

ويُضحي فَتيتُ المسك فوقَ فراشِها نؤومَ الضُّحى لم تنْتَطِقْ عن تفضُّلِ

وكنى عن تباهي محبوبته بالجمال وعن حداثة سنها بقوله :

إلى مثلها يرنو الحليمُ صبَابةً اذا ما اسبَكَرتْ بين دِرْعٍ ومجْوَلِ

والشاعر يثب في وصفه من جزء الى جزء من غير أن يُرتِّب معانيه ترتيبا حسنا ، فهو يصف بطنها بالضمور ، ويشبه صدرها بالمرآة في نعومتها ، ثم يرتقي إلى خدها فيصفه بالأسالة ، والى عينها فيصفها بكثرة التلفت ، ثم يهبط الى جيدها ، ثم يرتقي الى شعرها ، ثم يهبط الى خصرها وساقها ، ثم يصف بنانها ووجهها ، فهو لم يحط بأجزائها إحاطة تامة ، ولم يصف جمالها المعنوي من صوت وحديث ، ولو فعل لجاء وصفه كاملا .

ويظهر في الوصف أثر البيئة الطبيعية من مثل البقرة المطفل ، والرئم ، وعِذْق النخلة ، وأنبوب السقي ، وأساريع الظبي ، ومساويك الاسحل ، كما يظهر فيه أثر الغنى والترف ، فالحليّ يزين جيد المرأة ، وعقص شعرها ، وفتّ المسك فوق فراشها ، ونومها إلى الضحى ، ونفي التفضل والانتطاق عنها ، كلّ ذلك يدل على كسلها وتنعمها وترفها .

ويظهر أثر النصرانية في تشبيه وجه المرأة بمنارة الراهب في قوله :

تضيءُ الظلام بالعِشاء كأنها منارةُ مُمسى راهبٍ مُتبتِّلِ

والوصف يُعوِزه الحياة والحركة ، فأغلب الصور يتلو بعضها بعضا من غير أن تتحرك ، ولا نرى غير الصدِ ، وتلفتِ عينِ البقرة ، ومدّ الجيد ، وضلالِ المشط في الشعر الغزير في قوله :

تَصُدُّ وتُبدي عن أسيلٍ وتتّقي بناظرة من وحش وَجرةَ مُطفِلِ
وجيدٍ كجيد الريم ليس بفاحشٍ اذا هي نصّته ولا بمُعطّلِ
وفرعٍ يَزينُ المتنَ أسودَ فاحمٍ أثيثٍ كقِنْو النخلةِ المتعثكِلِ
غدائرهُ مستشزراتٌ الى العُلا تَضِلُّ العِقاصُ في مُثنًى ومُرسَلِ

رفع
المسهم

والوصف مجرد من العاطفة الذاتيـــة إلا ما كان من تعلّق قلب الشاعر بصاحبته ، وردّه نصيحةَ العُذّال فيها .

ونقع في الوصف على مادة لغوية لا نجدها في الغزل ، فالشاعر في هذا الباب يرسل نفسه على سجيتها ، ويعبر عن عاطفته ، ويذكر أيام لهوه من غير أن يتكلّف التعبير ، أو يلتمسَ الغريب ، أما في الوصف فالألفاظ الغريبة تكثر ، والقارىء يُضطرّ الى استعمال المعجم .

والشاعر يجعل نفسه في منزلة بين العالم والشاعر ، فيدقّق الوصف ، ويفصّل أجزاءَه ، ويبحث عن الألفاظ التي تلائم معانيه ، ويعبر فيما بين ذلك عن عاطفته ، فهو في غزله يتحدث عن نفسه ، ويتغنى بمشاعره ، فيمثّل طور المغني ، وهو في وصفه يتجاوز نفسه ، فيتخيّر الألفاظ التي يؤدي بها معانيه ، ويمثل طور العالم ، فنحن في المعلقة أمام نوعيْن من الشعر ، نوعٍ يصدر عن الطبع ، ونوعٍ يصدر عن الصنعة والتكلف .

ونقع في وصف المرأة على ألفاظ ثقيلة في النطق كالسّجَنْجَل ، وهي لفظة رومية ، والمُتَعَثْكِل ، والمُسْتَشْزِرات ، والشَّثْن ، والاسبِكْرار .

وتكثُر الصفات وتتعدّد ، فصاحبته مهفهفةٌ بيضاءُ غيرُ مفاضة ، ذاتُ خد أسيل ، وجيدٍ غيرِ فاحش ولا مُعطّل ، وفرعٍ أسودَ فاحمٍ أثيث ، وكشحٍ لطيفٍ مُخصّر ، وبنانٍ رخصٍ غيرِ شَثْن ، هذا إلى صفاتٍ أخرى كقِنْو النخلة المتعثكل ، والفرع المثنّ والمرسَل ، والسّقيّ المُذلّل ، والراهب المُتبتّل ، والخصم الألوى ، وكثرةُ الصفات وتعدُّدها يطبعان وصف المرأة بطابع التكلف .

رفع المسهم

والشاعر ، في تكلفه للوصف ، يفتح للرواة بابا واسعاً يدخلون منه ، وينسبون اليه ما لم يقله ، وهنا يقع الانتحال في الشعر ، فالوصف في القصائد الجاهلية أدنى الى الصنعة منه الى الطبع ، وهو عبارة عن ألفاظ غريبة وصورٍ معلومة تداولها الشعراء في موضوعات الوصف وخاصَّةً وصف الفرس والناقة والوحش .

★ ★ ★

ثم ينتقل الى وصف الليل ، فيعبر عن حزنه ، ويصور همومه ، ويشكو من طوله ، ويصور ذلك صوراً مختلفة ، فهو محزونٌ اذا وقف بالديار وذكَر الأحباب ، وهو محزون اذا خلا الى نفسه في الليل .

ففي المعلقة شيء لا يتطرق اليه الشك هو حزن الشاعر ، وتملُّقه بذكرى أحبابه وأيامِ لهوه وسروره ، وعتابُه لصاحبته ، ورجوعُ إلى تصوير الحزن .

وهو يصور ظلام الليل وطوله ، فيشبه الليل بموج البحر في كثافته وشدة ظلمته ، ويجعل له أستارا ، ويستعير لطوله صورةَ البعير يَتمطَّد بصدره ، ويتمدَّد بظهره ، ويباعد مؤخَّرَه ، ويَكْني عن طوله بأن نجومه شُدَّتْ الى جبل « يَذْبُل » بحبال متينة ، وأن الثريا لم تبرح مكانَها ، فكأنها مربوطة بصخور صُمّ ؛ وتلك الصورُ يظهر فيها تأثير البيئة الطبيعية .

★ ★ ★

ثم يتجاوز نفسه قليلا ، فيصور حياته مع الصعاليك ، ويصف الوادي ، وعُواءَ الذئب ، وحديثَه معه ، وتشابُهَ حاليهما من فقر وضعف وهُزال .

رفع المسيرهما

وقد شك القدماء في الأبيات التي صورت حياته مع الصعاليك لأنها لا تُشاكِل شعره ، وقالوا : إنها أشْبَهُ بشعر الصعاليك منها بشعره ، ومن ثَمَّ نسبوها الى «تأبَّطَ شراً» ، كما قالوا : إن كثيرا من شعر امرىء القيس لِصعاليكَ كانوا معه .

واذا كانت الأبيات قد صوّرتْهُ صُعلوكاً أو شبيهاً به ، وخالفت نظرةَ القدماء الذين تصوروه مَلِكاً أو ابنَ ملك ، فانه عاش عيشةَ الصعاليك .

والشاعر يصور نفسه خادما لأصحابه ، ويشبه الوادي بجوف العَيْر ، وعُواءَ الذئب بصُراخِ المُقامر ذي العِيال ، ويشارك الذئب لِتشابُه حاليْهما ، ويُحاوِره ، فكلاهما لا غِنَى له ، ولا مَطْمَعَ عنده .

وتَشارُكُ الشاعر والذئب نَجِدهُ عند الشنفرى في العصر الجاهلي ، وعند الفرزدقِ في العصر الاسلامي ، وعند البُحْتريّ في العصر العباسي .

فالشَّنفَرَى في لاميته يُجاهد نفسه بالصبر على الجوع ، ثم يتناسى جوعه حتى يَذْهلَ عنه ، ويَسْتَفُّ التراب لكيلا يكونَ لأحد فضلٌ عليه ، ولا يَدَّخِر المأكلَ والمَشرب خشيةَ المَذَمّة ، ويقنع بالقوت الزهيد قناعةَ الذئب النحيل الأغبر ، ويصف الذئب الجائع ، فيصوره يُعارض الريح ، ويَنْقضُّ في الشِّعاب ، ويسرع في سيره ، ثم يُعْجِزه تحصيلُ القوت ، فيعوي ، فتجتمع عليه الذئاب الجائعة النحيلةُ مثلَه ، ثم يصف هيئةَ الذئاب وتَشاكِيَها ، ويصورها تكتم أمرها ، وهي في شدة الجوع ، فالشاعر لم يكتف بتشبيه نفسه بالذئب بل أسهب في وصف حاله وحالِ الذئاب الجائعة . فهو والحيوان يَتَشاكيان ، ويتشاركان .

والفرزدق يصف ذئبا أغبرَ اللون ، مضطربا في مَشْيه ، كان

رفع المسهم

صادفه في سفره ، فيدعوه على ضوء النار الى مشاركته في زاده ، ويَقسِم الزاد بينهما ، ثم يَتَكَشَّرُ الذئب ضاحكا ، فَيُمْسِك الشاعر بسيفه مُوعِداً له ، ويصوره مفطورا على الغدر ، ويرى أنه لو قصد غيرَه مُنبِّهاً له مُملتَمِساً القِرَى عنده لأصابه الشر . فالشاعر والذئب يتشاركان ، وكلاهما يَحذر الآخر .

★ ★ ★

ثم ينتقل الى وصف الصيد ، ويُمَهِّد له بوصف الفرس ، وفرسه قصير الشعر ، سريعُ الجري ، ويستعير لسرعته القيد ، فيقيّد به الوحوش ، وهو عظيم الخِلْقة ، صالحٌ للكرّ والفرّ في وقت واحد ، ويشبهه في سرعته بجلمود صخر أسقطه السيلُ من مكان عال ، وهو شديد الحمرة ، أملسُ الظهر ، يَزِلّ اللِّبْد عنه كما تزل الصخرة الملساء في الوضع المُنْحدِر ويجيش في عدوه كما تجيش القِدْر في غليانها ، ويستعير الشاعر السّحّ لسرعة عدوه ، والسباحةَ للخيل ، فبينا فرسُه يصبّ العَدْو صبّاً اذا الخيلُ تَفتُر ويبطؤ جريها ، فتثير الغبار في الأرض الصّلبة اليابسة ، وفرسُه لا يُمكِّن من ظهره غيرَ الفارِس الماهر ، وهو في شدة عَدْوه وخفته كخُذْروف الوليد في دَوَرانه ، ويمتاز بعدةِ محاسن ، فخاصرتاه ضامرتان كالظبي ، وساقاه طويلتان كالنّعامة ، وهو ، في جريه الخفيف ، يشبه الذئب ، وفي جريه الشديد يشبه الثعلب ، وهو عظيم الصدر ، واسع الاضلاع ، سابغُ الذنب ، وذنبهُ يسد الانفراج بين فخذيه ، وليس بطويل ولا قصير ، واذا وقف بجانب البيت بدا ظهرُه برّاقاً أملسَ كَمَداك العروس وَصَلاَيةِ الحنظل ، ويَلْحق بأوائل الوحوش ، وعندما يطعنها

رفع المسهم

راكبه يصيب رشاش دمائها نحره المزبد ، فيصبغه بالحمرة ، فكأنه عصارة حناء صبغت منه شعرا شائبا مسرحا .

والوصف غني بالصور ، والصور زاخرة بالحياة والقوة والحركة ، والحركة أوضح سماتها ، وهي تشتد حتى تتوهمها العين سكونا ، فالفرس يعدو حتى يعادي الوحوش ، ويغدو قيدا لها ، ويكر ويفر ، أو يقبل ويدبر في وقت واحد ، فهو إذا وصل الاقبال بالادبار كانا في رأي العين حركة واحدة ، وتمتد حركة الفرس الى الطبيعة .

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معا   كجُلْمودِ صخرٍ حطَّه السَّيلُ من علِ
كُمَيتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حالِ مَتْنِه   كما زلَّتِ الصَّفْواءُ بالمُتَنَزَّلِ

وبعض الصور جامد ، فكأن الشاعر يقيف فرسه ليصفه كما في قوله يصف محاسنه :

له أيْطلا ظَبْيٍ وساقا نعامةٍ   وإرخاءُ سِرْحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ
ضليعٍ إذا استدبرتَه سدَّ فَرْجَه   بضافٍ فُوَيقَ الأرضِ ليس بأعزَلِ
كأنَّ سَراتَه لدى البيت قائماً   مَدَاكُ عروسٍ أو صَلايةُ حَنظلِ

ويمزج الألوان بعضها ببعض ، فقد مزج دماء الهاديات في نحر الفرس بالزبد النافذ من جلده لسرعة جريه ، فأشبه ذلك شعراً شائبا مسرحا مصبوغا بالحناء :

كأنَّ دماءَ الهادياتِ بنحرِهِ   عُصارةُ حِنَّاءٍ بشَيْبٍ مُرَجَّلِ

ويخيل الينا أننا نسمع صوتا في قوله يصف جلمود الصخر يسقط من مكان عال ، والصفواء تزل في منحدر السيل ، والغلام يسقط عن

رفع
المسيرهم

صهوة الفرس ، والخُذْروفَ يلعب به الوليد ، ونسمع اهتزام الفرس الشَّبيهَ بغليْ مِرجل .

والشاعر وثّاب في وصفه ، ينتقل من جزء الى جزء من غير ان يرتب معانيَه ، وهذه الطريقة أقربُ إلى الفن وأعلقُ به ، فهي تلائم مزاج الفنان القلِقِ الذي لا يثبت على حال واحد .

والشاعر ماهر في وصفه وتصويره ، فقد سبق الى معانٍ وصور لا نجدها عند غيره من الشعراء ، فوَصَفَ الجواد من النواحي التي توضح قوته وسرعةَ جريه ، وجعله مُقَيِّداً للوحش سريعا مطاوعا ، لا يُتعِبه الجَرْي ، ولا يفوتُه الوحشُ ، ووصف ظهرَه وخاصرتيْه وساقيْه وعَدْوَه ، وذلك ما يُتطلَّبُ وصفهُ في الجواد من حيث صلوحُه للكر والفر والصيد .

وقد مهّد امرؤ القيس للشعراء سبيل الوصف ، فجروا على غِراره ، وقلدوه في لفظه وتركيبه وصوره ، حتى صَعُبَ على مؤرخ الأدب أن يتصور شخصية الشاعر في باب الوصف .

ومها يكن فوصفُ الفرس في المعلقة أقربُ الى الصنعة والتكلف منه الى الطبع ، والشاعر يُدقِّق الوصف ، ويصور أجزاء الفرس ، ويبحث عن الألفاظ التي تُلائِم معانيه وصوَره ، ويتغنّى بشاعره من زهوٍ بركوب الفرس ، وسرعة جريه ، وتقييده للوحوش ، وعِظَم خِلْقته ، وبديع تكوينه .

وظهر في الوصف أثر البيئة الطبيعية وما فيها من حيوان كالطير والظبي والنعامة والسرحان والتتفل والهاديات .

ثم يقص الشاعر خبر الصيد ، فقد ظهر له سِرْبٌ من بقر الوحش ،

رفع المسهم

وجرى الفرس خلفها ، فتفرقت كعِقد من خَرَز مفصل ، وألحق الفرس الغلام بأوائلها ، وبقيت المتخلّفات مجتمعة ، كأنها ، لسرعته ، لم تشعر بما أصاب أوائلها ، ثم تفرقت بعد ذلك ، وجرى الفرس جرياً متواصلاً بين ثور ونعجة ، فأدركهما في طَلَق واحد ، ولم يَعْرَقْ عرقا يَعُمّ جسمه ، فكأنه لم يتعب ، ثم عالج الطّشاة لحم الصيد شيّاً على الجمر ، وطبخاً في القِدْر .

ثم يصور إعجابه بفرسه ، وَحيْرَته في محاسنه ، ويجمله حيث يراه ، ويتركه يبيت ، وعليه سرجـــه ولجامُه ، ليركبه في الصبـاح ، ويخرجَ للصيد .

ووصف الصيد يمتاز بالخفة والحركة ، ويشتمل على صور حيّة ، فهو يُشبّه سرب البقر بعذارى تطوف حـــول الصنم « دَوَار » بِملاء مذيّل ، وهو تشبيه مقلوب اتبعه الشعراء ، وأصبح ضَرْبا من ضروب التشبيه ، كقول أحدهم يمدح الخليفة :

وبدا الصباح كأن غُرّتَهُ وجهُ الخليفةِ حينَ يُمْتَدَحُ

والحق في هذا التشبيه أن يُشبّه وجهُ الخليفة بالصباح لأن الصباح أدلُّ من وجه الخليفة على صفة الاشراق .

ويشبه الشاعر تفرق السّرب بعقد من خرز قد تبدّد ، وهو تشبيه يصور تفرّق السرب في جهات مختلفة ، ويكني عن جمال الفرس بتصعيد النظر وتسهيله فيه ، ويكني عن الاستعداد لركوبه في الصباح ، والخروج به الى الصيد بأنه بات قريبا منه ، وعليه سرجُه ولجامُه .

★ ★ ★

رفع المسهم

وبعد أن يفرغ من وصف الصيد ، ينتقل الى وصف البرق والمطر والسيل ، فيصور البرق يلمع في سحاب مُتراكمٍ مستدير ، ويشبه سرعة وميضه بحركة اليدين ، وضوءه بمصباح الراهب ، ثم يقعد له ينظرُ من أين يجيء بالمطر ، ويتعجب من بُعْده ، ثم يصور المطر يمتد من جهات مترامية ، فيمينهُ على جبل (قَطَن) ، ويسارُه على جبل (الستار) ، ويصوره يصب الماء حول (كتيفة) ، ويقلع الأشجار ، ويمر على جبل (القَنان) ، فيُكرِه الوعول على النزول منه ؛ وعلى (تَيْماء) فلا يترك بها جِذع نخلة ولا بيتاً ضعيف البنيان ، ويمر بجبل (ثَبِيرَ) فيغطيه بالماء فيبدو شيخا مُتَزمِّلا بكساء مُخطَّط ، ويكشف ما يغطي جبلَ (المُجَيْمِر) من تراب ونبات ، ويحيط به ، فيبدو رأسه كَفَلْكة مِغْزَل ، ويلقي حمله في صحراء الغَبيط ، فينبت نباتا مختلفا ألوانه وأزهارُه ، ويجعل الوادي روضة غنّاء تغرد فيها الطيور كأنها شربت الصَّبوح ، فسكرت ، وطَربت . ثم يستحيل المطر سيلا يُغرِق السباع ، ويحتملها طافيةً فوق مائه كأنها رؤوس البصل البري .

ونحسُّ ضعفا في تشبيه وميض البرق بحركة اليدين ، وأثراً للمسيحية في تشبيه ضوئه بمصابيح الراهب ، ونجد الاستعارة في الشجر المُلْقىَ على وجهه ، وفي بَماع السيل ، وفي المَكاكيّ التي شربت الصَّبوح .

والوصف غني بالصور ، والصور زاخرةٌ بالقوة والحياة ، وهي تمثل البيئة الطبيعية من برق وسحاب ومطر وسيل وجبال وودبان ونباتٍ وحيوان .

والوصف يَشِفُّ عن اغتباط الشاعر بظاهرة المطر والسيل ، وهي

رفع المسهم

ظاهرة طبيعية تروي ظمأه وظمأ الصحراء ، وقد مدها على بقاع مختلفة .

★ ★ ★

فالشاعر وقف بالديار ، وبكى الحبيب ، وعبّر عن عاطفة البين والشوق ، وذكر صواحبه ، وتغنّى بأيام لهوه وسروره ، وصوّر بلاءه في الحب ، وفتنته للنساء ، وعاتبَ فاطمة ، وقص خبر زيارته لصاحبته ، ووصف المرأة وصفا دقيقا مفصلا ، ثم وصف الليل ، وصور حياته مع الشّدّاذ ، ووصف الفرس والصيد ، وأخيرا وصف البرق والمطر والسيل .

وقد اشتملت القصيدة على أغراض متنوعة يمكن ردها الى ثلاثة :

الأول الغزلُ والتشبيب ، ويدخل فيه الوقوفُ بالديار ، وبكاءُ الأحباب ، وذكرُ أيام السرور ، واللهوُ بالنساء ، وعتابُ فاطمة ، وخبرُ الزيارة ، ووصفُ المرأة والليل .

والثاني وصفُ الفرس والصيد ، ويدخل فيه وصف الوحش والأودية .

والثالث وصف الطبيعة ، ويدخل فيه وصف البرق والمطر والسيل وآثاره .

★ ★ ★

والقصيدة منظومة على الطويل ، والشاعر يلتزمه في أبيات القصيدة كلّها ، كما يلتزم القافية التي قامت على حرف اللام المكسور .

وهي تطول فتبلغ ثمانين بيتا ونيّفا ، وتتناول موضوعاتٍ يتصل بعضها ببعض ، والغرضُ الذي يسعى اليه الشاعر هو الغزل والتشبيب ، ووصفُ الطبيعة المتحركة بما فيها من خيل ووحش ، والطبيعةِ الصامتة

رفع المسهم

بما فيها من جبال وصحارى وأودية وأمطار وسيول .

والشاعر لا يهجُم على غرضه منذ أول القصيدة ، وإنما يسعى اليه رفيقاً متمهلا ، فيستهل قوله بالوقوف على الديار ، وذكرِ مواطن الأحباب ، ووصفِ آثارها ، والتعبير عن عاطفة البين والشوق ، ثم يَتغنّى بذكرياته ، ويُعَدِّد أيام لهوه وسروره ، وأكثر ما يهتم به من ذلك ذِكرُ صواحبه ، وهو يُعنَى بهن أكثر مما يعني بالديار ورسومها ، ويلجأ الى القَصَصِ الغزليّ الماديّ لتصوير لهوه ، وبلائه في الحب ، ومنزلته عند النساء ، ثم يصف المرأة ، وينتقل الى وصف الليل ، وبعد أن يفرغ من ذلك يصور حياته مع الصعاليك ، ثم يصف فرسه ، ويُمهِّد بوصفه للصيد ، ويُلهيه وصفُه لفرسه وللصيد عن نفسه ، وعن الطريق التي يقطعها عليه ، ثم يصف البرق والمطر والسيل وآثاره .

وذلك النحوُ من تكوين القصيدة ملائمٌ لحياة الشاعر وللبيئات التي خالطها ، ووحْدة القصيدة وحدة نفسية ، أو هي وحدةُ الشعور والتذكار ، فالشاعر يقف بالديار ، ووقوفُه يهيج ذكرى الحبيب ، والذكرى تبعث أيامَه الماضية ، وأيامُه الماضية متصلةٌ بلهوه وحبه وصيده ، وبما شاهده في الطبيعة من برق ومطر وسيل .

★ ★ ★

وقد طافت شُبُهاتٌ حول المعلقة مصدرُها تزيُّدُ الرواة على الشعراء ، وعَبَثُهم بما انتهى اليهم من الشعر الجاهلي ، فقد رُوِي عن الأصمعي قولُه (١) :

---

(١) مراتب النحويين ص ٧٢ . وانظر العصر الجاهلي لشوقي ضيف ص ٢٤٤

رفع المسهم

«كلُّ شيء في أيدينا من شعر امرىء القيس فهو عن حماد الراوية إلا نُتَفاً سمعناها من الأعراب «أبي عمرو بن العلاء» .

فنحن أمام شاعر نُسب اليه ما لم يقل ، ولذا وجب أن نتلقّى رواية الأصمعي لشعره بحذر واحتراس ، وأولُ ما يلقانا فيهـا معلقتُه ، وكان حماد قد سبق الى روايتها ، غير أن روايتَه لها شُفِعَت بروايات لرواة موثّقين من مثل الأصمعي والمفضّل الضبّي .

وذلك دعا القدماءَ والمحدثين الى الشك في بعض أبيات المعلقـة وأقسامها ، فقد أنكر الأصمعيُّ منها أربعةَ أبيات في وصف حياة الشاعر مع الصعاليك ، وعُواءِ الذئب في الوادى القفر ، وحديثِ الشاعر معه ، لأنها لا تُشاكل شعره ، وإنما تُشاكل شعر الصعاليك ، ومن ثَمَّ نسبها بعض الرواة الى «تأبّطَ شرّاً» . وقيل في الموشّح المرزباني : (١) «إن كثيرا من شعر امرىء القيس لصعاليكَ كانوا معه» .

واستند الدكتور طه حسين الى شك القدماء ، ومضى في هـذا السبيل ، فشك (٢) في قصة الزيارة التي رواها امرؤ القيس ، وذهب الى أن الرواة حين انتهت اليهم المعلقة ، ولم يجدوا فيها الغزل القَصَصي الذي وجدوه عند ابن ربيعة ، نظموه ، وأضافوه الى المعلقة ، ونسبوه الى الشاعر .

وشك في بعض الأبيات التي قالها الشاعر يوم دخل خِدر عنيزة ، وصحّ عنده قوله :

---

(١) الموشح ص ٣٤ ، وطبقات فحول الشعراء ص ١٣٤ ، والعصر الجاهلي لشوقي ضيف ص ٢٤٤

(٢) في الأدب الجاهلي ص ٢١٩–٢٢٣ ، ومحاضرات في الأدب الجاهلي لعام ١٩٣٩–١٩٤٠

رفع
المسلم هم

ويومَ دخلتُ الخِدرَ خدرَ عنيزةٍ فقالتْ : لكَ الويلاتُ إنكَ مُرجِلي
فقلتُ لها سيري وأرْخي زِمامَهُ ولا تُبعِديني من جَناكِ المُعَلَّلِ

وأمعن في شكه فاعتبر الأبيات في وصف المرأة من قوله : « وبيضةِ خدْرٍ لا يُرامُ خِباؤها » الى قوله : « ألا رُبَّ خصم فيكِ ألوى رددْتُه » موضوعةً عليه ، ولاحظ ما في الوصف من تكلف ، ووجد فيه تفصيلا لم يجده إلا في وصف الخيل والابل .

وشكَّ في أبيات الشاعر في وصف الليل ، فذهب الى أن البيتيْن :

وليلٍ كموج البحرِ أرْخَى سُدولَهُ عليَّ بأنواع الهمومِ ليَبْتَلي
فقلت له لما تَمطّى بِصُلْبِهِ وأردف أعجازاً وناءَ بِكلكلِ

وُضِعا ليدخلا على قوله :

ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انجَلِي بِصُبْحٍ وما الأصباح مِنكَ بأمْثَلِ

وشكَّ في وصف الفرس والصيد ، فاعترف بنبوغ الشاعر في وصف الخيل والصيد والمطر والسيل ، وتردّد أن يكون وَصفَ ذلك في المعلقة التي انتهت الينا ، ورجّح أن يكون قد قال ما قال في شعر ضاع ، ولم يَبقَ منه إلاّ الذِّكرُ ، وإلا جُمَلٌ أخذها الرواة ، فنظموها في شعر أضافوه الى الشاعر .

واذا كان الدكتور طه حسين قد غلا في شكه حتى بلغ ذلك المدّ فلأنه وقف من الشعر الجاهلي مَوقِفاً قام على الشك ، ودرَس هـذا

رفع المسهم

الشعرَ متأثرا بفكرة سابقـــة أخذها عن القـدماء وعن المحدثين من المستشرقين .

وما قدّمنا من شكّ القـــدماء والمحدثين في بعض أقسام المعلقة وأبياتها يدل على أن صورة المعلقة التي انتهت الينا هي أطرافٌ من القصيدة الأصلية (١) .

---

(١) اعتمدت في التعريف الشاعر على « أدباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام » لبطرس البستاني ، و « رجال المعلقات العشر » للغلاييني ، و « العصـــر الجاهـلي » لشوقي ضيف ، و « شرح القصائد العشر » بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، و « مختار الشعر الجاهلي » لمصطفى السقا ، و « المفصل » لأحمد أمين ورفاقه .

رفع المسهم

المراجع (١)

١ ـ أدباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ، بطرس البستاني ، ص ٢٩
٢ ـ الأصنام لابن الكلبي ، م . دار الكتب المصرية ، القاهرة
٣ ـ إعجاز القرآن للباقلاني
٤ ـ الأغاني ، طبعة دار الكتب ، ج ٩ ص ٧٧
٥ ـ الاقتضاب ٢٩٥
٦ ـ الأمالي لأبي علي القالي ، م . دار الكتب ، القاهرة
٧ ـ أمالي المرتضى ، م . السعادة ، القاهرة ١٣٢٥
٨ ـ امرؤ القيس لسليم الجندي
٩ ـ امرؤ القيس لرئيف الخوري
١٠ ـ امرؤ القيس ، الروائع ٧ ، فؤاد أفرام البستاني
١١ ـ بدائع البدائه لابن ظافر الأزدي ، بولاق ١٢٧٨
١٢ ـ بعث الشعر الجاهلي ، محمد مهدي البصير
١٣ ـ تاج العروس للزبيدي
١٤ ـ تاريخ الأدب العربي ، أحمد حسن الزيات ، طبعة ٦ ص ٤٦
١٥ ـ تاريخ الأدب العربي ، بروكلمن ، ج ١ ص ٩٧
١٦ ـ تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان ، مطبعة الهلال ١٩١١ ج ١ ص ١٠٠

---

(١) هذه المراجع مستقاة من « الأعلام » للزركلي ، و « الروائع » للبستاني ، وكتاب « امرىء القيس » لسليم الجندي ، و « مصادر الدراسة الأدبية » ليوسف أسعد داغر ومن غيرها ، وقد أثبتها هنا ليتوسع من شاء في دراسة الشاعر .

رفع المسهم

١٧ ـ تاريخ آداب العرب . مصطفى صادق الرافعي
١٨ ـ تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص ٢٣٢
١٩ ـ تاريخ الجاهلية ، ص ٩٢
٢٠ ـ تهذيب الأسماء واللغات ١ / ١٢٥
٢١ ـ تهذيب ابن عساكر
٢٢ ـ جمع الجواهر ، ص ٣١٤
٢٣ ـ جمهرة أشعار العرب ، ص ٣٨ ، ٨٩
٢٤ ـ خزانة الأدب للبغدادي ، ج ١ ص ٢٩٩
٢٥ ـ خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي ، بولاق ١٢٧٣
٢٦ ـ دائرة المعارف الاسلامية ، ٢ / ٦٢٢
٢٧ ـ دائرة المعارف للبستاني ، بيروت ١٨٨٠
٢٨ ـ دراسة الشعراء ، ابراهيم الابياري ، ص ٢٨٦
٢٩ ـ رجال المعلقات العشر . الفلاييني ، ص ٥١
٣٠ ـ سرح العيون ، ص ٣٣٣
٣١ ـ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، المطبعة الخيرية ، القاهرة ، ١٣٠٦
٣٢ ـ شرح ديوان رئيس الشعراء أبي الحارث ، المطبعة الخيرية ، القاهرة ١٣٠٧
٣٣ ـ شرح ديوان امرىء القيس للسندوبي
٣٤ ـ شرح ديوان امرىء القيس ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم
٣٥ ـ شرح شواهد المغني للسيوطي ، ج ١ ص ٢١ ، ٩٢ ، ٣٤٤
٣٦ ـ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ، ص ٣
٣٧ ـ شرح القصائد العشر للتبريزي ، ص ٢
٣٨ ـ شرح المعلقات السبع للزوزني ، ص ٧٠

رفع المسهم

٣٩ - شرح نهج البلاغة ، ٢٠ / ٢١٥
٤٠ - شعراء الجاهلية
٤١ - الشعراء الستة الجاهليون ، وليم بن الورد ، لندن ١٨٧٠ م
٤٢ - الشعراء الجاهليون ، محمد عبد المنعم خفاجي ، ص ١٥٢
٤٣ - شعراء النصرانية ، ج ١ ص ١ - ٦٩
٤٤ - الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ج ١ ص ١٠٥
٤٥ - الصحاح للجوهري
٤٦ - العقد الفريد ، طبعة مصر ، ٢ / ١٣٠
٤٧ - العمدة لابن رشيق
٤٨ - عيون الأخبار لابن قتيبة ، م . دار الكتب
٤٩ - في الأدب الجاهلي ، طه حسين ، ط ٢ ص ٢٠٩ - ٢٢٤
٥٠ - الكامل للمبرد
٥١ - كامل ابن الأثير ، ج ١ ص ٣٠٤
٥٢ - لسان العرب لابن منظور
٥٣ - المؤتلف والمختلف ، ص ٥
٥٤ - مسائل الانتقاد ، ص ١٠ ، ٤٨ ، ٦٠
٥٥ - المعلقات العشر للشنقيطي ، ص ٣
٥٦ - معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، ١ / ٩٠
٥٧ - المفصل في تاريخ الأدب العربي ، ج ١ ص ٤٧
٥٨ - مقدمة الالياذة لسليمان البستاني ، مصر ١٩٠٤
٥٩ - الموشح للمرزباني
٦٠ - نهاية الأرب في فنون العرب للنويري ، ٣ / ٦١
٦١ - الوسيط في الأدب العربي وتاريخه

رفع المسهم